أغنية ...

قصة فيتنامية

بقلم نجوين فان ثنج

هبط علينا الليـــل ، كما لو القى أحد على الغابة بعباءة سوداء هـــائلة .. أحسست ببرودة ، وارتجفت .

انبعثت من ولاعتي بضع شرارات قليلة ، وبعد وقت جـد طويل أصبحت لدينا شعلة في حجم حبـــة الذرة .. خفقت وهددتنا بـأن تخبو .. فاحاطت بها يدان كبيرتان صنعت ستارا حول هذا الفانوس البائس .. لم يتحدث أحد .. كانت كل الاذهان متجهة لهذه الشعلة الصغيرة التي يمكن أن تخبو في أية لحظة .. وخرير جدول المـــاء عند سفح الجبل يصل الى أسماعنا بوضوح .

وانتشرت الشعلة الى غصن جاف .. ثم الـــى أغصان أخرى ، وفي لحظة أصبحت كومة الخشب الجافة نهب اللهب ، مضيئة وجوه المحيطين بها .

كنا في مجموعنا خمسة ، بما فينا مسافران جديدان انضما الى جماعتي الكشفية بمحض المصادفة .

وفي هذا الصباح ، حينما تسلقنا طريق « يوي » ، لمحنا شبح رأس ذي شعر أسود ، و « بلوزة » رمادية فاتحة تحيط بجســـد نحيل ممشوق ، يبدو بين حين وآخر وسط الخضرة .. كنا متعبين .. ولكن صورة هذا الشبح زودتنا بالشجاعة .. فقد سرنا خمسة أيـام عبر الغابة دون أن نلمح كائنا حيا .

لم تكن هذه المرضة جميـــــلة .. وجهها نحيل .. ملامحهـــا شاحبة .. نظرتها غريبة لا أستطيع وصفها .. عيناها غائرتان تضويان سوادا . كل ما أعرفه انني حينما التقت عيناي بعينيها لاول وهـــلة أحسست برجفة ، ولم أشأ النظر اليها مرة أخرى ، وظننت أول الامر انها خصتني وحدي بهذه النظرة الغريبة ، لكني تأكدت فيما بعد انها تحملق هكذا في زميلي الآخرين ، وتعجبت .. اذا كانت هذه نظراتها العادية .. فكيف تكون عيناها حينما تحملق في حدة ؟!

كان في استطاعتي أن أرى ونحن نعبر جدول ماء يطفو عبر أشجار « البامبو » جنديا وحيدا في سترة رسمية بنية اللون .. جالسا على مقعد حجري .. ينظر الى الماء ويدندن ، مصطحبا قيثارة قديمـــة مشققة .. تساقط طلاؤها . ولم يلحظ وجودنا رغم اننا تقدمنـــا الى منتصف الجدول ، وفجأة صاح « تران » أكبر أعضاء جماعتنـــــا الكشفية سنا : توان .. ثم قدمه الينا .

ــ الزميل توان .. من فرقة الرقص والغناء .. وهو مـــؤلف « الكشاف » التي كنا غالبا ما نغنيها في الايام الاخيرة .

وكان من دواعي سعادتي أن أصافح هذا الموسيقي الشاب الذي عرفته اسما ، ولم تسنح لي الفرصة كي أراه . فالتقط قيثاره وانضم لجماعتنا ، وقد ألفته بسرعة . وكان قد ذهب الى الجبهة مرحـــا منشرح القلب .. كما يذهب الآخرون الى رحلة سعيدة .

ولا شك انه لم يكن قد أفاق بعد من أحلامه التي قطعناهـــا عليه .. فقد بدأ في أول الامر يصفر ويدندن أثناء السير ، ثم أخذ يضحك ويتحدث بمرح ..

وكان واضحا انه لم يبد اهتماما بالمرضة .

ورغم ذلك .. أفصحت عينا المرأة عن فرحها ، وارتعشت شفتاها بمرح ، وتوقعت في كل لحظة أن أسمع سؤالها له « هل عرفتني ؟ » لكن تأكد لي انها المرة الاولى التي يلتقيان فيها . نكست رأسهـــا وسارت بجواري صامتة ، وتعثرت في حجر مدبب ، لكنها لم تئن ، ورفعت رأسها بعد لحظة لتنظر الى الموسيقي ، وكان يتحدث أمامنـــا بمرح مع الكشافيــــن الآخرين ، وأحسست من نظرتها اضطرابهـــا وحماناتها ، فلقد كانت لهذه المرأة عينان تتكلمان .

وجعلتنا مصاحبة الرفيق الجديد نسير أكثر مرحا ، وكان بعض ذلك يرجع الى لهجة الموسيقي الجنوبية الشجية التي يحكي بهـــا قصصه ، ويرجع الباقي الى عيني المرضة .

وحينما هبط الليل ، توقفنا عند معسكر اقامته طليعة الحمالين للجيش ، وكان الجيش قد غادره مساء .

وأفلح « تران » بقوة صبره في اشعال النار ، وأخذت ملامحنا تبدو أوضح فأوضح كلما ارتفع اللهب حول العلبة الصفيحية المعلقة في غصن فوق اللهب .

احضرت خوذة مملوءة بالماء فوضعنها على ثلاثة حجارة فوق النار .

« هذا الماء لك يا مس خــوان .. ضعي فيه قدمك فيساعد على هبوط الورم . لانك بهذه الحالة لن تستطيعي متابعتنا غدا » .

دلكت قدمها المتورمة الحمراء ، وقالت معتذرة :

« انني أسبب لكم ازعاجا كبيرا » .

نظر اليها « دينه » بحنق :

« انت لا تزعجيننا على الاطلاق .. من يدري .. ربما نأتي اليك بعد أيام قليلة على نقالة » .

كان « توان » يجلس أمامي ناظرا الى النار .. ينقر على ركبته في ايقاع .. وشفتاه تتحركان كما لو كان يدندن بأغنية ، وكنت على وشك التحدث اليه ، حينما ألقى تران من الجانب الاخر بحصـــــاة على قدمه :

« حسنا أيها الموسيقي ! غنِّ بصوت مرتفع حتى نسمع جميعا » .

اتخذ « توان » أهبة الاستعداد ، ورفع رأسه ، وعلت وجهـــه ابتسامة لطيفة ، انفرجت عنها غمازة على وجنته اليمنى ، وانضـــم الى الحلقة .

وفتحت الانسة « خوان » حقيبتها العسكرية ، واستخرجت منها بعض كعك الارز تقاسمته معنا . ولم يستطع « دينه » اخفـاء شعوره بالاغتباط فصاح :

« يا لهـا من مفاجأة لطيفة ! »

والتففنا حول النار ، ولم تلبث رائحـــة شواء كعك الارز أن انتشرت في الهواء .

وانبعثت الانغام فأخذت تسري في الهواء ، ثم تخبو بعيدا فـي ظلام الليل مع الريح السارية .

كان يغني واقفا ، وبين يديه قيثارته القديمة ، وقدمه مسنـدة الى جذع شجرة مقطوع ، وظله يمتـــــد خلفه على الممر المـــؤدي الى الجدول .

غنى ألحانا شعبية ، وغنى كثيرا من مؤلفاته ، من بينها اغنيتنـــا المفضلة « الكشـاف » ، وظل يغنينا فترة طويلة ، وحينما انتهى مـــن الغناء راح ينظر الى اللهب فترة واستغرق في التفكير :

« آه .. ها هي .. دعوني أغنِّ لكـم اغنية اخـرى « جماعة الزميل ايجو » ، فلم أغنها منذ وقت طويل » .

وظللت أعجب ، لماذا يبدو مأخوذا بهذه الاغنيه الى هــــــذه الدرجة ، بينما راح يغني :

« في المنطقة المحتلة أعرف مراكبيا عجوزا
من يستطيع أن يخبره أين ذهب جيشنا ؟!
من يستطيع أن يخبره كيف حارب ابنه على الجبهة ؟!
لقد مات ايجو وعيناه تتجهان الى الاعداء
وجثته ترقد على شاطىء النهر .... »

كان يغني بصوت هامس كمن يعترف لنا بسر ، ومست الكلمـات قلبي كلمة بعد أخرى ، وأسرتنا الاغنية وحملتنا بعيدا ، وامسكنا عن التنفس أمام هذا الايقاع الرائع ، ولاحظت يدي « تران » الكبيرتيـن ترتعشان ، حتى « دينه » الذي أطلقت الطبيعة قلبه المرح ، أخـذ فجأة وبدا عليه الجد . أما المرضة فقد كانت مشدودة الى الغناء ، تحملق في الموسيقي حريصة على ألا تفوتها كلمة واحدة .

وحينما وضع « توان » حقيبته جانبا ، لم يتحدث أحد خشية ضياع النغم الذي لا زال يطفو على الهواء . وتراقص انعكاس اللهب على عينيه المثلثتين اللتين سرعان ما اغرورقتا بالدموع .

كنت أعرف ان فرقة الرقص والغناء تتبع المحاربين في أصعب عملياتهم الحربية وفي أخطر المواقع ، ولقي اثنان من أفرادها في هذا المعسكر مصرعيهما ، أحدهما أثناء اقتحام موقع « ماندل » والآخر أثناء القتال للحيلولة دون امداد جنود الاعداء الذين كانوا يحاولون فتح طريق « كوبراي ماندل » وقدرت كم ضحيا في عملهما. وتأكد لنا ان وراء هذه الاغنية سرا ، ورغم اننا كنا متحرقين لمعرفته ، لم يجرؤ أحد على السؤال .

تناول « توان » علبة الماء الصفيحية التي قدمها له « تران » وشربها جرعة واحدة ، ثم نظر نحونا كمن أدرك ما يدور في خلدنا ، وأخذ يحكي :

كانت هذه الاغنية أيها الاصدقاء هي ما جعلني أقرر ان أصبح موسيقيا في الجيش . كتبها أخي الاكبر . ولو قابل أحدكم أخي مرة لما نسيه أبدا . يقولون دائما أنني صورة منه ، ومع ذلك فأنا لا أبدو شيئا بالنسبة له . كان كل انسان يحبه ، لانه كان الطيبة نفسها .

كان هو الذي يرضخ أولا في معاركنا صغارا . وحينما جئنا لنذهب الى الجنوب لم يكن أبي قلقا علي ، بل عليه . وصاح به :

ـ حاول ان تكون أكثر يقظة .. وأكثر فاعلية .. كيف تستطيع أن تحارب وأنت بهذه الطيبة ؟!

ثم التفت أبي نحوي قائلا :

ـ حاول أن تكون دائما بجوار أخيك ، واعتن به .

فقلت مدعيا :

ـ أذا لم يستطع الذهاب الى الجبهة فسيعمل في مكتب .. لا تقلق يا أبي .

ولكنني مرضت في « كوانج نجاي » فاضطررت للبقاء في المستشفى ، وتبع أخي وحدته الى الجبهة ، ولم تصلني أخباره فظننته قد قتل .

وحينما غادرت المستشفى خدمت في عدة وحدات : الكشافة .. المواصلات . ثم عدت عام ١٩٥٠ الى وحدة الكشافة ، وكنت في نفس القسم الذي يوجد به « تران » الان ، واخترت في نهاية عام ١٩٥٠ ـ بعد تدريب سياسي ـ الى الفرقة الفنية ، وكان بهذه المناسبة أن ألفت أغنية الكشاف ، وفي أثناء التدريب ظننت ان في هذه الاغنية ضياعي ، فلم تكن تسرني فكرة العمل في مكتب ، وفكرت في ليالي العمليات الحربية حينما تلتقي كل فرقة بأخرى ، أثناء العبور ، وقد يسأل سائل :

ـ الى أية فرقة تنتمون ؟

ولم يكن ينقص أحدا الفخر ليقول :

ـ الكشافة .. الفرقة الهجومية ..

ولكن حينما يقابل الجنود كتائب غير محاربة ، فمن السهل أن يصيح أحدهم :

« أهؤلاء أنتم يا حملة الاقلام ؟! »

« أهؤلاء أنتم يا كتيبة الماندولين ؟! »

وكان اليوم الذي حملت فيه حقيبتي العسكرية الى المركز السياسي أبأس يوم في حياتي ، وأسعد يوم كذلك ، فهناك قابلت أخي ، وكان قد اختير للفرقة الفنية ، واغرورقت عيناننا بالدموع .. أمسكني أخي من كتفي وصاح : ـ لقد كبرت !

فضحكت وقلت :

ـ لكنك لا زلت شابا كما كنت دائما .

وكان ذلك حقا . كان يبدو أصغر مني رغم انه يكبرني بعامين ، لقد تغير قليلا ، وفيما عدا بشرته التي لوحتها الشمس ، كانت عيناه الرقيقتان .. وابتسامته الهادئة التي لم تفارقه أبدا .. وحديثه المقتصد .. كما كانت من قبل .

وقلت في نفسي : لا غرو .. فقد ظل طوال هذه الفترة في مكتب ، ولم يعان الا قليلا .

ونظرت في حقيبته العسكرية كعادتي السيئة كلما قابلت صديقا عزيزا ، فوجدت بها صندوقا أحمر .. فتحته ، فوجدت به نيشانين عسكريين من الدرجة الثانية والثالثة ، فسألته :

ـ هل هما لك ؟

ـ نعم .

ـ لا بد انك حاربت كأسد .

ـ مثلك تماما .

لقد شارك أخي في عدة هجمات بطولية في الجنوب . وأغار في وضح النهار مع ثمانية جنود على مدينة « آها تراتج » ، وفي مرة أخرى تنكر في هيئة امرأة وقتل ثلاثة جنود فرنسيين .. ولكنه حكى لي ذلك كله وكأنه شيء عادي .. وذهلت وسألته :

ـ ولكن لماذا أرسلت الى هنا؟

ـ اصبت في ذراعي اليسرى ، وبعد خروجي من المستشفى رشحت هنا .

ورفع كم قميصه فبدت ندبة كبيرة بطول عضلة الكتف .. فقد جرته المعركة الى القتال يدا بيد .. وتذكرت حينما كنا نتصارع صغارا ، كان من السهل علي أن أطرحه أرضا ، وكان حينذاك يخلص نفسه ويذهب الى مكان اخر .. لقد اشتد اخي كالفولاذ في المعركة .. وزاد حبي واعجابي به .

ورغم سعادتي بلقائنا ، لم أفلح في التكيف مع وظيفتي الجديدة ، فذهبت الى رئيس ادارة الثقافة والاعلام وطلبت اليه العودة الى وحدتي السابقة ، وبالطبع لم يوافق .. ولهذا لا زلت في الفرقة الفنية . أما عن أخي فلم يشك ، بل أظهر حماسا لعمله الجديد ، وقال :

ـ ينبغي أن نذهب الى حيث يحتاجون الينا ، لا تشاكس .

وضايقني ذلك فقلت :

ـ انك تتحدث كما لو كنت كتابا .

فنظر في عيني بعمق ، وانقلبت نظرته الرقيقة المألوفة الى نظرة قاسية وصاح : ـ اذن فأنت لم تتغير .

وظللت غير مقتنع حتى كانت هذه الحادثة :

في ليلة لا قمر فيها ولا نجوم ، كان على الجنود أن يعبروا نهرا في المنطقة المحتلة من « كوانج نام » ، وكنت وأخي في نفس المركب مع مجموعة من المحاربين ، ولم يفكر المراكبي العجوز حتى في أن يرفع بنطاله ليخلص المركب الراسي في منطقة ضحلة . وحاول أحد الجنود أن يساعده فرفض قائلا :

ـ ابق مكانك .. احتفظ بقوتك .. لا زال عليك أن تسير .. أستطيع أن أعدها بنفسي .

وانزلق المركب برفق على الماء ، فقفز المراكبي اليها وتناول المجداف . وبدأ الطل يبلل ملابسنا ، وهبت ريح باردة ، وسعل العجوز بشدة ، فوضع أخي قيثارته وحقيبته في قاع المركب وقال :

ـ دعني أجدف .. يا جدي .

فهز العجوز رأسه وقال :

ـ انك لا تعرف النهر جيدا ، واذا عاقتنا منطقة ضحلة فسنعجز عن الخروج منها قبل الفجر .. ومع ذلك فهذا عملي ، ولن أدع غيري يقوم به .

وترددت قبل أن أسأله :

ـ أليس في أسرتك من يحل محلك ؟

وكان علي أن أردد سؤالي ثلاث مرات قبل أن يجيب :

ـ كانت زوجة ابني تحل محلي .. ولكن قتلها الفرنسيون في مطلع هذا العام .

وأخذ العجوز مرة أخرى يسعل سعالا جافا ، وكان مؤلما أن نسمع سعاله المتصدع الذي يمتد صداه عبر النهر ، وانقبض قلبي.. ورفع الجندي الجالس بجواري رأسه الذي كان يدفنه في حقيبته ، ثم أخفضها من جديد .

لم يعرف أحد ماذا يقول ، وبدأ العجوز يتكلم وكأنه يتحدث الى انسان بعيد :

« بني .. ألن تعود لتنتقم لزوجتك ؟ انهم هنا .. كان اليوم الثالث عشر في بداية قمر الشهر .. أنت تعرف .. كنت أغزل السلال في البيت .. وزوجتك تجمع أوراق التوت على شاطىء النهر ، وسمعت أحدا ينادي المراكبي من الشاطىء الاخر .. وظننت انهم جنود المقاومة جاءوا يعملون في المنطقة المحتلة .. وظللت فترة طويلة دون أن أسمع زوجة ابني تجيب .. ولكني سمعت آهة بدت لي غريبة .. ونزلت الى المرسى لارى ما يحدث ، وما كدت أصل حتى فوجئت بجندي . كانت زوجة ابني لا زالت واقفة بجوار الشاطىء بين أشجار التوت دون أن تقول كلمة ، وكان أحدهم يتحدث اليها من خلف الشجيرات القريبة :

ـ استمري كأنك تجمعين الاوراق .. عند أقل اشارة سأطلق الرصاص .

وفي النهر كان المركب في وسط الغدير ، يعمل بمجدافيه رجل قوي يرتدي « شورت » أسود ، بكل قوته ، ليصل الى الشاطىء الاخر ، وفهمت كل شيء من أول وهلة ، وكنت على وشك أن أرفع يدي لاعطي اشارة حينما اندفع الجندي نحوي ودفعني خلف دغل من أشجار « البامبو » ، ونظرت نحو زوجة ابني ، كانت تبدو مأخوذة بالموقف ، وكان عليها أن تصيح لتحذر جنودنا وتحثهم على العودة .. ولكن ثلاثة بنادق كانت مصوبة اليها .. وعلى الشاطىء الاخر نزل ثلاثة جنود الى حافة النهر يغسلون أقدامهم ، وكدت أجن .. هل سيلقي هؤلاء الجنود بأنفسهم الى القتل من أجل مركبي ؟ لقد كان المركب حتى الآن يعمل في خدمة المقاومة ، فهل علينا أن نجلس الآن ونراه قادما نحونا محملا بالجنود لقمة سائغة للاعداء ؟! وفجأة اندفعت زوجة ابني الى الشاطىء صائحة :

ـ العدو قادم في المركب .. لا تعبروا !

ففادر جنودنا الشاطىء بسرعة ، وأغمضت عيني حتى لا أرى زوجة ابني وهي تسقط .

كانت هناك تماما .. وأشار المراكبي العجوز الى مجموعة من أشجار التوت عبر الشاطىء ..

وعاوده سعال شديد حاد ، وأمسك الجندي الجالس بجانبي يدي وارتجفت ذراعه ، وما زال يدفن رأسه في حقيبته .

وحينما وصلنا الى المرسى ، قفز الجندي الى الماء قبل أن يجد العجوز وقتا للنزول وسحب المركب ، وصاح العجوز فجأة :

ـ « ايجو » ألست أنت ؟ ولكن .. نعم .. هو ذا أنت » .

واستمر الجندي في السير مشيحا بوجهه ، وسرعان ما اختفى خلف ستار من أشجار « البامبو » . وصاح العجوز في صوت متصدع أليم :

ـ لقد عرفتك .. هوذا أنت .. هوذا أنت يا ايجو .. انتقم لزوجتك ، يا بني !..

***

وفي الصباح التالي تلقيت أمرا بالانضمام الى وحدة أخرى ، وطلب أخي أن يظل مع ايجو .

وعند عودته بعد أسبوع أخبرني ان جماعة من ثلاثة رجال بقيادة ايجو ، حاربوا حتى الرجل الاخير ليمنعوا تقدم الفرنسيين الى « تام ديين » وقد استمرت جماعته تحارب يوما كاملا ضد قوات تفوقها ، وضحت بنفسها تماما .

وظل أخي ثلاثة أيام لا ينام ليكتب أغنية « جماعة الزميل ايجو » وأسر لي بسر :

ـ انني أفكر أن أعود يوما الى هذا المرسى لاخبر العجوز بما فعله ابنه .

ولم تكن الاغنية قد تمت بعد حينما تلقى الامر بالانضمام الى الوحدة المتجهة لمهاجمة مركز « تو لوان » ، وكان لاخي سترة بنية كالتي أرتديها الان ، ويحمل مثل هذا القيثار ، وسألني :

ـ حدثني بصراحة ، هل أنت مقتنع الآن بعملك الجديد ؟

ولم أشأ أن أكذب :

ـ ليس تماما ، لا زلت أريد العودة الى وحدتي القديمة .

فبدا عليه قليل من الحزن وقال :

ـ كنت أعرف ذلك . ولذلك فأنت لم تعط أفضل ما عندك ، رغم انك أكثر مني مقدرة .

ولو كنت أعرف انني أراه لآخر مرة ، لاجبته اجابة أخرى ، فبعد ثلاثة أيام ، علمت انه قتل بقنبلة ، وتسلمت من بين ممتلكاته المذكرة التي كتب فيها مؤلفاته ، ووجدت بها أغنية « جماعة الزميل ايجو » التي كان قد اتمها .. انني دائما احتفظ معي بهذه المذكرة .

***

أخرج « توان » من جيب قميصه مذكرة بهت غلافها الاصفر ، واقتربنا لننظر اليها صفحة بعد أخرى ، وكانت هناك كلمات مشطوبة ومعاده ، وفي الصفحة الاخيرة كانت أغنية « جماعة الزميل ايجو » وسألت :

ـ هل سمع المراكبي العجوز هذه الاغنية ؟

ـ ليس بعد أيها الزميل ، فقد كان علينا أن نعود من طريق اخر .. ولم تسنح لنا الفرصة لمقابلة العجوز .. ولكن لا زال هناك شيء اخر أيها الزملاء ..

وقلب « توان » صفحة أخرى من المذكرة ، كان مكتوب عليها :

« الى المراكبي العجوز ، والى حبيبتي ذات العينين الغريبتين » .

ـ هل ترون أيها الزملاء ؟! ينبغي علي أيضا أن أغني هذه الاغنية لفتاة ذات عينين غريبتين . لم يتحدث الي أخي عن قصة حبه ، كنت أظنه دائما لا يهتم الا بعمله . لم يترك أي عنوان أو صفحة في مذكراته تدل عليها . أن العثور على المراكبي العجوز مرة أخرى لامر سهل ، ولكن كيف العثور على الفتاة ؟.. أنا واثق انني لن ألتقي بها .

وناوله « توان » جرعة ماء أخرى وقال :

ـ من يدري .. ربما كانت يوما من بين المستمعين في أحد العروض التي قدمتها ؟!

وعاد « دينه » الى ابتسامته الساخرة قائلا :

ـ وربما تزوجت ؟!

فأومأ « توان » : ربما .. ثم قال متأثرا :

ـ هذا لا يغير من الامر شيئا ، طالما أستطيع أن أغني لها الاغنية ، ان الشيء الوحيد الذي أخشاه ، أن تكون قد نسيت أخي تماما .

وحينئذ فقط رأيت الانسة « خوان » ترفع رأسها وقد غمرت عينيها الدموع :

ـ انكم غير عادلين .. جميعكم .. كيف تستطيع أن تنساه ؟

ثم التفتت الى « توان » قائلة :

ـ حاول أن تعثر على العجوز ، وغن له الاغنية . أما الفتاة فقد استمعت اليها الليلة .

ولم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاندفعت في النشيج .

وحدثت فرقعة في النار ، وتطايرت عدة شرارات وتصاعدت في دوامة ، وحينما خبت لم يبق سوى بقعة متألقة من السماء لا زالت تلتهب ..

لم تكن شرارة .. فقد بزغ نجم .

موسكو

ترجمة : محمد فكري